



إن السعادة لا تأتيك عنوة ولا استجداً ..

إنما هي منبع ثرٌ بالعطاء، وأريجٌ فواحٌ ينثرُ شذاه في الأفاق، وإشراقه توقُّد فتيلَ الروح وتصهرُ أشواقَ الأحلام، وتعيد للذاكرة ريفَ الخاطرة فتتفتقُ قطراتٌ نديةٌ من مهجة الحياة، ترطبُ ندوبَ الجراح فتلائمُ بلا مشقةٍ ولا عناء ..

إن الإيمان حين تنشيه قلوبُ الأصفباء فُيذِّين جبينها بُغْرَة النصر، ويُقْلَدُ جيدها المعالي فتَحَلُّ بالاعتزازِ والفاخر، وترُتقى به مراتبَ المَجَدِ التَّلِيدِ ومهدَ الأتقياءِ مَزِيَّةً وتنالُ به سَجِيَّةَ أهلِ الكِرامَةِ والعزَمِ، من عاشوا في الدُّنيا بزَادٍ قليلٍ وهم في سعةِ ورَخاءٍ، وماتوا وهم الأغنياءُ السُّعداءُ، وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي في مدح هؤلاء ممن زهدوا في الدُّنيا وصانوا دينهم من التَّبَطُّ في لُجَّةِ الفتنِ:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطَّنَا \*\*\* تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا  
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَا عَلِمُوا \*\*\* أَنَّهَا لَيْسَ لِحَيٍّ وَطَنَا  
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا \*\* صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفَنا  
وَالسَّعَادَةِ .. لَا تَسْكُنُ قَلْوَبًا جَوْفَاءِ:

قد تعَلَّقت بالآمالِ العريضة فتَخلَّت عن مُقوِّماتِ الإيمانِ والفضيلة، وساقَها الجحودُ والطُّغيانِ إلى الانحرافِ عن سُبُّلِ الخيرِ والهداية، وجدَّبَتها أهواءُ الشَّهَوَاتِ والمَلَذَاتِ فشرَدَت في مَرَاطِعِ الْكُفْرِ والضَّلَالَةِ، وخارَمَها المَيْلُ إلى الدَّعَةِ والرَّاحَةِ فَأَفْسَدَ

سُلُوكَهَا، وَغَلَّ جَوَارِحَهَا بِأَغْلَالِ الْأَنْسِحَاقِ وَالْأَنْدِحَارِ فَشَلَّ تَفْكِيرَهَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، كَأَنَّ عَلَى أَبْصَارِهَا غُشَاوَةً كُتُلَكَ الَّتِي خَتَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غُشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ)

قد ابتلاها اللَّهُ تَعَالَى بِالْحِرْمَانِ مِنْ نِعْمَةِ الْغِبْطَةِ وَكِرَامَةِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَرْسَلَ عَلَى قُلُوبِهَا سِجَافَ الْحَزَنِ الْكَثِيفِ، فَصَارَتْ أَشْبَهَ بِمُعْتَكَفٍ ضَيْجَ منَ الْبُكَاءِ عَلَى الْأَطْلَالِ مَشْحُونَةً بِالضَّجَّ، لَا تَمَلُّ مِنْ تَجْرُّعِ غُصَصِ الْمَرَارَةِ عَنْ كَثَبِ، وَضَاقَتْ عَلَيْهَا الدُّنْيَا فَلَمْ تَسْعُهَا بِرْحَابَتِهَا وَانْبِسَاطِهَا، كَمَا ضَاقَتْ أَرْوَاحُهَا بِأَنْفَاسِهَا الْعَلِيَّةِ فَلَفَظَتْهَا خَارِجَ شَرِبَانِهَا الْأَعْزَلَ كَدُخَانَ حَطَبٍ يَابِسٍ، وَصَدَقَ الْحُقُّ سَبْحَانَهُ حِينَ قَالَ فِي سُورَةِ طَهِ: (فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَىَيْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْكُرُ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنِّكًا وَتَحْسُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّي لَمْ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

وَالسَّعَادَةِ.. فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ:

يُشْرِقُ نُورُهَا الْوَهَاجِ فِي قُلُوبِ تَعْلَقَتْ بِاللَّهِ فَاطِمَائِنَتْ إِلَى رُكْنِهِ الَّذِي لَا يَنْهَا، وَسَكَنَتْ نِبْضَاتُهَا إِلَى وِسَادِ الرَّاحَةِ الرَّحِيبِ كَطَلِيلِ مُتَعَبٍ تَوْسَدَ رَاحَةَ الْمَهْدَى، تَرَفُّ بِشَكْوَاها فِيهِزُها الْحَنِينُ إِلَى ُلُوْجِ رَوْضِ السَّعَدِ، وَتَرْتَوْيِي مِنْ سِقَايَهِ الطَّيِّبِ الْعَذْبِ، وَتَسْتَهْلِلُ بَظَلِيلِ نَخْلِهِ وَتَلْتَقِطُ مَا تُثْمِرُهُ الرُّطَابُ مِنِ الْعِدْقِ، وَتَتَنَتَّشِي مِنْ لَذَّةِ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ قُطَارَةَ الشَّهَدَى، فِي لَقَاءِ فَرِيدِ لَهُ أَسْرَارٌ لَا يَسْبُرُ أَغْوَارِهَا إِلَّا الْعَارِفُونَ بِمَا تَحْتَوِيهِ خَزَائِنُ اللَّهِ مِنْ يَوْاقِيتِ الدُّرَرِ، وَلَا يَجْتَلِي أَنْوَارَهَا السَّاطِعَةِ إِلَّا ذَوَوا الْبَصَائِرِ الصَّاحِيَّةِ، وَالضَّمَائِرِ الْخَالِصَةِ، وَالْأَلْسُنِ الْذَّاكِرَةِ، وَالْجَوَارِحِ الْطَّاهِرَةِ، مِنْ رُزُقِوا التَّنَعُّمَ بِالْطَّمَانِيَّةِ وَجَمَعُوا الشَّمْلَ بِأَسْبَابِ الْفَرَحِ الْوَارِفِ، لَمَّا تَطَهَّرُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَتَحَلَّلُوا مِنَ الْمَعَاصِي، وَزَهَدُوا فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا وَرَغَبُوا عَنْ مَلَذَاتِهَا بِالْكَفَافِ وَالرِّضَا بِالْتَّصِيبِ الْمُفَرَّرِ، فَحِيزَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا، وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ أَمِنًا فِي سِرْيِهِ مُعَافِيًّا فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ فُوقُتُ يَوْمَهُ فَكَانَمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)..

وَالسَّعَادَةِ تَسْكُنُ قُلُوبًا فَرَّتْ مِنْ لُجَّةِ الْأَدْنَاسِ وَصَدَّتْ عَنْ شَقْوَةِ الْفِتْنَ، فَعَادَ إِلَيْهَا الصَّفْوُ يَصْدَحُ بِخَفْقَانِ الْحُبِّ، يَنْفَضُّ عَنْ رَفُوفِ ذِكْرَيَاتِهَا دُخَانَ الْوَجَعِ، وَيَخْمِدُ فِي صَدْرِهَا الْمُلْتَاعِ الْكَمَدِ وَالْقَهْرِ، فَيَهِتَفُّ رُكْنُهَا الْخَامِلِ يَسْتَجْدِي وَصُلْلًا بِالْمَعْنَى الَّتِي تَحْرِكُ رَفِيفَ الرُّوحِ، وَتَبْعُثُ فِي خَلْجَاتِهَا أَكْرَمَ ذِكْرِي وَأَشْرَفَ عَهْدِ، وَأَنْبَلَ مَأْرَبَ، وَأَسْمَى قَصْدَ، فَيَلْتَحِفُ صُوْتُهَا الشَّاكِي قَلِيلًا مِنَ الصَّمَمِ وَالسُّكُونِ، لَتَرْسِلَ الْمَسَرَّاتُ بِسَمَاتِهَا مَجَلِّلَةً فِي الزَّمِنِ الرَّغْدِ..

وَالسَّعَادَةِ.. فِي الْجَدِّ وَالنَّشَاطِ:

تَتَمَلَّهَا الْحَوَاسِ فِي هَذَا الْوَجُودِ الْفَسِيحِ فَتَقْبِلُ عَلَى الدُّنْيَا إِقْبَالَ الْمُجَدِّينِ، لَا يَصْرُفُهَا اللَّهُو وَلَا اللَّغُو، وَلَا فُضُولُ الْكَلَامِ عَنِ الْإِنْتَاجِ وَالْتَّحَصِيلِ، تَصُونُ مَكَارَمَ الْأَخْلَاقِ عَمَّا يُزْرِيَهَا وَيُشَيِّنُهَا، وَتَنَأَّى بِنَفْسِهَا عَنِ مَجَالِسِهِ مِنْ أَنْقَدَتْ قُلُوبَهُمْ بِالْدَّخَنِ وَالْدَّغْلِ، وَتَصُدُّ عَمَّنْ خَالَطَ عُقُولَهُمُ السَّفَهِ وَالْدَّجَلِ، وَتَحْفَظُ كِرَامَةَ أَهْلِ الْمَجَدِ وَالشَّرْفِ، وَتَصُونُ هِبَّةَ أَهْلِ الْوَقَارِ وَسُلْطَانِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَتَحْثُلُ الْخُطِيَّ سَاعِيَّةً فِي الْأَرْضِ بِكَدِّ وَنَشَاطٍ عَلَى شَرِعَةِ أَهْلِ الرَّشَادِ وَالصَّالِحَةِ، خَالِيَّةَ الدِّهْنِ مِنْ كُلِّ وَجَلٍ أَوْ عَطَلٍ، تَحْصُدُ سَنَابِلَ الزَّرْعِ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَالثَّمَرِ، وَتَصْنَعُ بِيَدِيَهَا الرَّغِيفَ وَالْخُبْزَ، قَانِعَةً بِلُقِيمَاتِ تُقْيِمُ صُلْبَهَا، وَتَشَدُّ عَوْدَهَا، وَتَقْوِي سَاعِدَهَا، وَلَا يَهْنَأُ لَهَا عِيشٌ حَتَّى يَرْبُو النَّبَاتُ وَيَخْضُرَ، وَتَتَسَعُ الرِّبَاضُ وَتُزَهِّرُ، وَتَمْتَلِئُ السَّوَاقِي، وَالْجَدَاوِلُ، وَتَفِيضُ الْأَنْهَارُ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ، لَا يَشْغَلُهَا عَنْ بَلَوْغِ غَايَاتِهَا النَّبِيلَةِ طَمَعُ زَائِلٍ وَلَا تَرْفُ زَائِدٍ، لَا يَصْرُفُهَا عَنِ التَّعَبِ فِيمَا لَا يُغْنِي وَإِنْ كُثُرَ، وَلَا يُحِزِّنُهَا التَّأَسُّفُ عَلَى فَوْتِ مَا لَمْ يُقْدَرُ، وَتَتَوَقُ هِمَتُهَا إِلَى مَا يَقْرِبُهَا مِنَ اللَّهِ وَيُغْنِيَهَا عَمَّا سَوَاهُ، فَتَأْتِيَهَا الدُّنْيَا رَاغِمَةً مُسْتَبِشَّةً،

مصداقاً لإرشاد النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَتِ الْأُخْرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غَنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمِيعُ لُهُ شَمْلُهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَقَ عَلَيْهِ شَمْلُهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِرَ لَهُ)..

فما أسعده تلك القلوب التي وجدت ظلّها الوارف ورُكْنُها الامن، يذكّرُها بما هو أعظم من كلّ شيء، ويلهمها الخُشوع وتدبر آيات الله في ذاك الوجود الرّحِب، يُحْجِبُ عن عينها النّظر إلى الحياة ويكشف لها النّظر للآخرة، فتلتذُّ بنشوة الغبطة..

المسلم

المصادر: